زاد تلبك معدتى، فزادت من الحياة نقمتى !

فياموت زر ان الحياة ذميمة ويانفس جدى ان دهرك هازل

***

تناولت دواء هاضما فأخذت أهش للحياة وأبش ، وبدأت أنظر الى العالم بوجه منطلق ، ومحيا منبسط — ها هو ذا قد تألقت صفحته ، وأسفرت غرته ، وانقشعت غمامته .

الحق ان العالم جميل ، فهذا نسيم يعطر الجو بعرفه ، وبحيي النفوس برقته ولطفه ، وهذا الربيع نزهة العين ، ومنطق الطير. وهذه الحديقة عقد منظوم ، ووشي مرقوم .

اصبحت الدنيا تروق من نظر بمنظر فيه جلاء للبصر

والارض فى روض كأفواف الحبر تبرجت بعد حياء وخفر

كل شيء حولى يضحك ! ليس فى الامكان أبدع مما كان .

قلبي وثاب الى ذا وذا ليس يرى شيئاً فيأباه

يهيم بالحسن كما ينبغى ويرحم القبح فيهواه !

ان الحياة غنية باللذائذ ، وليست الآلام فيها الا توابل تهيء لاستمراء اللذة .

والشوك فى شجرات الورد محتمل

ما الدنيا الا قيثارة يوقع عليها شجى الالحان ! أو مائدة شهية صففت عليها صنوف الألوان !

وقد تخمد الشمس الصباح بضوئها

تفاوتت الأنوار والكل رائق

ان كان فى الدنيا سخف وهذيان، فكن فيلسوف الضاحك، ولا تكن الفيلسوف الباكى !

وان كانت الدنيا ألغازاً وأحاجى ، فكم نجح العقل فى حلها واستجلاء غامضها . وكل يوم تتسع دائرة المعلوم ، وتضيق دائرة المجهول . والعقل يلذه البحث ولو لم يصل ، ويشعر بالغبطة ولو لم ينل . وفى نجاحه فيما أدرك، عدة له فيما لم يدرك .

***

رحماك اللهم ! إن كان درهم من دواء هاضم يغير وجه العالم ويحيل السواد بياضاً ، والشقاء سعادة ، والقبح جمالا ، والظلام نوراً ، والحزن سرورا ، فأين الحق!

التجديد فى الأدب

« حول مقال الأستاذ احمد أمين »

للدكتور عبد الوهاب عزام

قرأت فى « الرسالة » مقالا للاستاذ الفاضل احمد امين عنوانه « التجديد فى الأدب » فرأيت آراء بينة استحسنتها ، وألفيت رأيا آخر لم أقبله ، وقد هممت أن اكتب مجادلا الاستاذ ثم بدا لى أن أرجيء الكتابة حتى يتم مقالاته، فلما قرأت المقال الثانى زاد الخلاف بينى وبينه . ثم عرفت أنه سيتلبث قليلا فلا يكتب عن هذا الموضوع فى العدد الآتى، فسارعت الى الكتابة وأنا اشعر أن الذى يحبب الى مجادلة الأستاذ حبى واعظامى وتلمسى محادثته كلما وجدت اليها سبيلا فى المجالس أو فى صفحات المجلات .

قابلت الاستاذ بعد أن قرأت المقال الأول فقلت : سأنقد مقالك أو أشرحه . فقال مازحا : قبل أن تقرأه ؟ قلت نعم. ذلك أننى أنشأت أنا وصديقى الأستاذ العبادى فى بعض الاسفار أبياتا وسميناها «القصيدة المكتمة» وكتمناها الاستاذ فقال: لا أبالى هذا الكتمان ، وسأشرحها دون أن أراها . وأذكر أنى قابلته مرة فقلت : «سؤال» فقال قبل أن يستمع الى سؤالى: «جواب» أتريد أن أجيب قبل السؤال أو بعده ؟ ولكن ليطمئن أستاذنا وليعلم أنى قرأت مقاله قبل أن أكتب عنه ، وهو أمامى الآن أقرؤه وأكتب ما يبدو لى فيه .

أعجبنى قول الاستاذ عن المجددين : « فاذا سألت المجددين ماذا يريدون بالتجديد ، وما ضروبه ومامناحيه وماذا يقترحون أن يدخلوه على الأدب العربى؟ جمجموا فى القول وأتوا بكلمات غير محدودة المعنى ولا واضحة الدلالة » وأنا أزيد على هذا أن التغيير ليس فضيلة ينبغى الحرص عليها والتنافس فيها والتفاخر بها ، وانما يستحسن التغيير أو التجديد حين تدعو الحاجة اليه . والكاتب النابغ اذا أحس الحاجة الى التجديد بدل وغير وابتدع فى غير صخب ولا سخرية ولا مباهاة، ثم عرض على الناس نتاج رأيه ، وثمرة ابتكاره فيرضونها ، أو يجادلون فى أمر وضحت معالمه واستبانت حدوده . الكاتب المجدد حقاً هو الذى يمضى فى سبيله قدما، مبيناً عن آرائه ومشاعره على الأسلوب الذى يفى بهذا البيان. والخطة التى يؤثرها ويفصلها لا يتكلف الاغراب والشذوذ ليقال انه مجدد . والشاعر

المطبوع هو الذى يسير على فطرته مخلصاً لنفسه مبيناً عنها لا يبالى أن يكون قد لزم الجادة المطروقة أو حادعنها، ثم يعرض على الناس شعره فيما اختار من موضوع وأسلوب فى الوزن والقافية. فاذا ثار الناس عليه جادل عن نفسه وأوضح حجته. والأدب فيما أحسب يؤثر فيه الاستطراف، فقد يغير الشاعر أسلوبا طال عليه العهد وملّه الناس، وقد يرجع الناس الى الاسلوب المهجور بعد حين فيستطرفونه. فالتغيير فى الادب واسع المجال ولكن ينبغى أن تحس الحاجة اليه وتستبين سبله.

الأدب العربى تقلب فى أطوار مختلفة، وابتدعت فيه بدع كثيرة ولكن لم نسمع ان المبتدعين مهدوا لابتداعهم بمعركة كلامية فى القديم والجديد، نظم ابن المعتز موشحه، وافتن المغاربة فى الموشحات افتنانا خرج بها عن الاوزان والقوافى المألوفة، ومضى الناس على هذا ولم يمهد لهذا الابتداع بثرثرة فى التجديد، ولم يكن للمجددين من حجة الا أن ألقوا الى الناس موشحاتهم تحتج لنفسها. وكذلك نظمت قصص كليلة ودمنة وغيرها فى القافية المزدوجة، ولم يكن هذا معروفا من قبل، وكتب بديع الزمان الهمذانى مقاماته وهى طريقة جديدة، وما عرفنا أن تقدم هذا وذاك جدال أجوف ذو دوى كالذى نسمعه فى هذا العهد. والمتنبى ذهب فى الشعر المذهب الذى ارتضاه ثم قال:

أنام ملء جفونى عن شواردها
ويسهر القوم جراها ويختصم

المعرى ملأ شعره بالفلسفة وأمور لم يألفها الشعر من قبل وكتب رسالة الغفران على غير مثال فمادعا الى طريقته ولا جادل فيها أحداً

وما أحسب لامرتين الشاعر الفرنسى حين نشر «التأملات» (١) قد أجهد نفسه فى الدفاع عن نفسه، والهجوم على مخالفيه. هذه هى الطريقة المثلى التى تجنبنا المعارك الضالة والكلام المتهاتر، والحجج المبهمة، حين يدور الجدل على أمر مشهود بين يمد الكلام، ويقصر النزاع، ثم يكون المثال الجديد حجة لنفسه تسد السبل على المعاندين والمغالطين. هذه هى الطريقة المثلى. وأما الجعجعة بغير طحن، أو الجعجعة فى طحن الكلام، وإثارة الخصام فجناية على القارئين، ومضلة للباحثين.

انما يكثر تحدث الانسان عن صحته حين يعتل، وأما الصحيح القوى فهو عامل جاهد، ماض فى سبيله لا يقيس كل خطوة بنصح الأطباء، ولا يزن كل أكلة بما أعطى من الدواء. وكذلك أعجز الناس عن الابتكار والاتقان أكثرهم ضوضاء وصخباً وسخرية وافتراء وادعاء

أعود الى مقال الأستاذ احمد امين، بعد أن ند القلم فى الكلام عن التجديد والمجددين، وأترك للاستاذ المقدمة التى ذكر فيها «العناصر الثابتة» فى الأدب و«العناصر المتغيرة» وأتصدى لكلامه فى تجديد الألفاظ. هو يرى أن التجديد فيها على ضربين: الأول «اختيار الالفاظ التى تناسب العصر، ويرضاها ذوق الجيل الحاضر» وضرب الاستاذ مثلا كلمة هبيخ وبعاق وكنهور. وأنا لا أريد أن أناقش الاستاذ فى الامثلة فقد قرأنا فى كتبنا القديمة أن «المناقشة فى المثال ليست من دأب المحصلين» ولكنى أخالفه فيما سماه ذوق العصر وأعرض نفسى لحكمه حين يقول: «وهذا بديهى لا يحتاج الى إطالة. وكل من جهل هذه الحقيقة لا يفلح أن يكون أديباً» أخالفه فى أن يجعل الذوق حكما ولا سيما ذوق الجيل الحاضر على قصوره فى اللغة والادب. وأخشى أن يقتصر هذا الذوق على ما ألف من الكلمات فيعد كل كلمة غير مألوفة نابية عن الذوق ثقيلة على السمع، فاذا أراد كاتب أن يدل على الهواء بين السماء والارض فقال «السكاك» أو «السمهى» ضحك منه أهل الذوق. وإذا أراد ان يدل على الهواء بين جبلين فقال «النفنف» سخروا منه، واذا قال صفقت الباب وأجفته بمعنى أنه مت اغلاقه أو تركت فيه فرجة «رجلته» اشمأز الذين لم يسمعوا بهذه الكلمات، على أن البيان فى حاجة اليها. ان الذوق يسقم ويصح. والاديب النابغة يستملى فطرته فيلائم الذوق العام أو يسيره حيث يشاء ولا يقف نفسه أسيرا تتصرف به الاذواق.

ان أمر الألفاظ أجل وأخطر من أن يحكم فيه الذوق وحده. ان الحاجة خلاقة الالفاظ ومبقيتها، والحاجة لا تبالى بالاذواق. فعلى كل أمة وكل جيل أن يأخذ من لغته الالفاظ التى يحتاج اليها ويخلق الالفاظ التى لا يجدها، غير مبال بالغرابة أو الثقل الذى يبدو أول الامر، فان الاستعمال جدير باستئناس الكلمة والملاءمة بينها وبين أذواق الناس. وكم من كلمة أجنبية ثقيلة استعملها الناس فألفوها، ولم يجادلوا فيها. فبعض كتابنا يقول البزوباجندا والديمقراطية والارستقراطية والميتافيزيقية على بعدها عن طبيعة لغتنا وأوزانها، أنا أعرف أن القدماء من أدبائنا غلوا فى الظرف وأخذوا على المتنبى وغيره كلمات سموها نابية أو حوشية. وقد تجلى هذا الظرف فى كتاب المثل السائر وغيره ولكن هذه الرقة لا يقام لها وزن عند الحاجة الملحة. بعض ألفاظ اللغة محاكاة الأصوات، وبعضها فيما أظن، تخيل المعانى فى الأصوات: حاكت اللغة صوت الريح والرعد والطير وأنواع الحيوان ونحوها ومثلت المعانى الأخرى

(١) Les Midjtations

فى ألفاظ تلائمها ـ فليس لنا أن ننفر من الالفاظ الشديدة ونتجنبها إن أردنا أن ندل على المعانى الشديدة . فالعقنقل والحقف والكثيب والجلمود وأشباهها ملائمة لمعانيها، ولا بد من استعمالها لندل على هذه المعانى. ولكن الذوق الحاضر يؤثر الألفاظ اللينة الخفيفة الجرس المألوفة، ويترك مثل هذه الألفاظ على شدة الحاجة اليها . ينبغى أن تؤثر الالفاظ القوية الشديدة لمعانيها ، والالفاظ الخفيفة لمعانيها، دون إنصات الى حكم الأذواق ، بل ينبغى أن يعمل الأديب لاحياء الالفاظ الطبيعية الشديدة كلما نزعت بالأمة رخاوة الحضارة الى نسيانها ، وينبغى أن تعالج اللغات بالألفاظ القوية التى تبدو ثقيلة غير مألوفة، كما يعالج ترف الحضارة بضروب السياحات والرياضات الشاقة . والاستعمال جدير بتذليل كل صعب ، واستئناس كل وحشى. يجب أن يحكم موضوع الكلام لاذوق المترفين . فالشاعر فى القاهرة أو باريس اذا وصف الجبال أو الحروب ، وهى بعيدة من إلفه ، ساغ له أن يأتى بالألفاظ التى تثير الروعة والهيبة . ان اللغات العامية فى البلاد العربية نتيجة الأذواق المختلفة، ولغة الأدب الموحدة فى هذه البلاد نتيجة مقاومة هذه الأذواق بالتعليم، ورفعها الى مستوى أرفع وأقوم .

أضرب للاستاذ الفاضل مثلا قول مسلم بن الوليد فى وصف الصحراء

ومجهل كاطراد السيف محتجز
عن الادلاء مسجور الصياخيد
تمشى الرياح به حسرى مولهة
حيرى تلوذ بأكناف الجلاميد

ما رأيه فى « مسجور الصياخيد» و« أكناف الجلاميد» ؟ أهى ملائمة لذوق الجيل الحاضر ؟ وهل يرى غيرها أجدر بمكانها فى هذا الشعر ؟ انها لاريب حسنة فى موقعها، بالغة ما أريد بها من وصف الصحراء حين تشتعل فيها الهواجر. فان كان علم الجيل الحاضر باللغة ينفر به عن أمثال هذه الكلمة فليس على الكاتب أن يتحرز عنها، ولكن على الناس أن يألفوها . ثم ماذا يرى الاستاذ فى قول ابن هانئ الأندلسى :

فخياضهم من كل مهجة خالع
وخيامهم من كل لبدة قسور
من كل أهرت كالح ذى لبدة
او كل أبيض واضح ذى مغفر
طردوا الأوابد فى الفدافد طردهم
للأعوجية فى مجال العثير

ماذا يرى إن كان جهل جيلنا الحاضر باللغة ينفر بذوقه من قسور وأهرت والأوابد والفدافد والاعوجية . وهل ينبغى أن يهجر قول الشريف الرضى :

من القوم حلوا بالربى وأمدهم
قديم المساعى والعلاء القدامس
تحلهم دار العدو شفارهم
وترعيهم الأرض القنى المداعس
بهاليل أزوال ، بكل قبيلة
ملاذع من نيرانهم ومقابس

أو ينبغى أن يهجر ذوق الجيل الحاضر إن نفر من مثل هذا الشعر ؟

أرى أن حاجة الكتاب الى الابانة والاعراب والابداع تسوغ لهم أن يتخيروا من اللغة مايشاءون، ويطبعوا ذوق الأمة كما يبتغون ، وأرى أن الذوق ربما يكون وليد الجهل وفساد الطبع ، والاستكانة الى كل هين يسير ، والركون الى كل سفساف مبتذل .

للذوق الحكم حين يتسع العلم باللغة والادب، وتعرض ألفاظ عدة لمعنى واحد فيختار الذوق واحداً منها . وللاختيار أسباب كثيرة، فقد يختار «هبيخ وبعاق وكنهور » وقد يختار غيرها. وانما الفظاظة والثقل أن يعمد الكاتب الى كلمات غير مألوفة فيؤثرها على المألوف إغرابا وتعمقا وشذوذا ومخالفة للذوق دون جدوى .

ثم يقول الاستاذ: « لذلك أصبحت فى معاجم لغتنا ألفاظ كثيرة ليس لها قيمة إلا أنها أثرية تحفظ فيها كما تحفظ التحف فى دار الآثار » وأنا أقول بعد الذى قدمت : ما أشد حاجتنا الى كثير من هذه الالفاظ المهجورة، فانها مجدية على من يعرفها ويستعملها . وعسى أن تصير ملائمة لذوق الجيل الحاضر حين يعرفها فيقضى بها حاجته من الابانة عما يريد .

ربما يقول الاستاذ بعد قراءة هذه الكلمة . ان الذوق فى رأيى هو الذوق الذى تخلقه الحاجة والمعرفة والتمكن من اللغة والادب ، وبلوغ الغاية مما نريد لا الذوق الذى يكون على العلات فى كل حين . فان يكن هذا الذى أراده أستاذنا فقد شرحته وبينته وبررت بوعدى حين لقيته فقلت : «سأنقد مقالك أو أشرحه . وأما مقال الاستاذ الثانى وهو أجدر بالمجادلة فوعدنا بنقده « الرسالة الآتية »